خاتمة

فى ختام هذه الدراسة عن الجوانب النحوية فى تفسير البيضاوى يمكننا أن نستخلص النتائج التالية:

1 – لا بد لكل مفسِّر من معرفة علم النحو والإلمام به، فالقرآن الكريم نزل بلسانٍ عربى مبين، فيحتاج المفسر إلى معرفة قواعد اللسان العربى ولإعراب يميز المعانى ويوقف على أغراض المتكلمين.

2 – ظهرت بدايات جهود النّحاة فى تفسير القرآن الكريم فيما أورده سيبويه من تحليلات لبعض الآيات القرآنية، ثم اختص النّحاة القرآن الكريم بمؤلفات تشرح ألفاظه وتحلِّل تراكيبه فيما عُرف بكتب (معانى القرآن)؛ والتى استمر ظهورها نحوًا من أربعة قرون؛ ومن أشهرها: (معانى القرآن) لكلّ من الأخفش والفراء والزَّجَّاج.. ثم تلا ذلك ظهور كتب اختُصَّت بتناول الجوانب النحوية فقط فى القرآن الكريم؛ وهو ما عُرف بكتب (إعراب القرآن)، والتى أشهرها (إعراب القرآن) لقطرب وأبى جعفر النحاس وأبى البقاء العكبرى.. ثم اتجه النحاة بعد ذلك إلى التفسير الكامل للقرآن الكريم مستعينين بكافة ما يحتاج إليه المفسرون من العلوم، مع غلبة المعارف اللغوية والقواعد النحوية على هذه التفاسير؛ ومن أشهرها (الكشاف) للزَّمخشرى، و(أنوار التنزيل) للبيضاوى، و(البحر المحيط) لأبى حيَّان الأندلسى، و(الدُّر المصون) للسمين الحلبى.

3 – يُعدُّ (أنوار التنزيل) للبيضاوى تفسيرًا موجزًا لخص فيه صاحبه من (الكشاف) ما يتصل بالإعراب والمعانى والبيان، ولخص من (مفاتيح الغيب) للفخر الرازى ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب الأصبهانى ما يتصل بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات؛ وقد أضاف إليه البيضاوى ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة، حتى غدا تفسيره – على إيجازه – محتشدًا بكنوزٍ من العلوم الشرعية

والمعارف اللغوية والنحوية والبلاغية والحقائق الكونية والفلسفية، فى أسلوب مبسط تقنع به عقول الخاصة ويقبل عليه العامة، حتى صار رائجًا عند الجميع ذائع الصيت، وعكف عليه العلماء يختصرونه، ويعلقون عليه، ويُحشُّونه، حتى يُعَدُّ حاجى خليفة أكثر من خمسين مصنفًا تناولت هذا التفسير ما بين مختصر وتعليقة وحاشية.

4 – استقى البيضاوى مادته النحوية فى تفسيره من مصادر عديدة؛ فقد صرح بالأخذ عن الخليل وسيبويه والأخفش والمبرد والفراء وقطرب وثعلب وأبى علىّ الفارسى وابن جنى، مع وجود كثير من النقول النحوية التى لم يصرِّح البيضاوى بأسماء من أخذها عنهم؛ كالزَّمخشرى وأبى البقاء العكبرى وغيرهما.. وهو لم يحرص على توثيق نصوصه النحوية وردها إلى مصادرها من الكتب أو المراجع التى نقلها منها، ولم يذكر بداية هذه النصوص المنقولة أو نهايتها، فيختلط على القارئ كلام البيضاوى بنقوله عن غيره.

5 – اعتمد البيضاوى فى ترسيخ ما أورده من القواعد النحوية على بعض مصادر الاحتجاج، كالسماع، والقياس، واستصحاب الحال، وعدم النظير، وكثرة الاستعمال فقط، دون بقية الأدلة الأصولية الأخرى، مع عنايته الفائقة بالقياس، وهو لا يحرص على استعمال مصطلحات علم أصول النحو سوى مصطلح استصحاب حال الأصل.

6 – اتَّبع البيضاوى سائر المتأخرين فى اتخاذ مبدأ الترجيح والاختيار بين مذهبى البصرة والكوفة فى النحو، فهو – وإن غلبت عليه النزعة البصرية على حد تعبيره عن البصريين بقوله (أصحابنا) – فإنه يأخذ أحيانًا بوجهة النظر الكوفية فى المسائل وبعض المصطلحات النحوية، ولكنه قد يأخذ بآراء غيرهما، وقد يعرض أقوال المدرستين فى بعض المسائل دون ترجيح أو اختيار لإحداهما، وربما عرض بعض المسائل الخلافية دون أيَّة إشارة إلى الخلافات المعروفة فيها.

7 – يعتمد البيضاوى القراءات السبع مضيفًا إليها قراءة يعقوب بن إسحاق الحضرمى، ومع ذلك فهو يتعرض للقراءات الشاذة، ويحرص على تخريج معظمها تخريجًا نحويًّا، وهو فى

ترجيح بعضها على بعض يعتمد إمَّا على موافقتها للقواعد النحوية، أو على أن المعنى عليها يكون أبلغ وأوقع، أو لموافقتها للقراءة المشهورة، وقد يعرض بعض القراءات فلا يرجِّح بينها.. وهو ممن يخطِّئون بعض القُرَّاء فى بعض قراءاتهم، وربما يصف بعضها بالضعف، أو يصف من يقرأ بها باللحن، ولكنه لا يعنِّف على القراءة أو يتهجم عليهم بالنقد القاسى أو التجريح الشديد؛ كما فعل الزَّمخشرى مثلاً.

8 – يُكثر البيضاوى فى شواهده النحوية من الاستشهاد بالقرآن الكريم، ولكنه لم يستشهد بالحديث النبوى الشريف فى المسائل النحوية مطلقًا، وهو لم يحرص فى شواهده الشعرية على ذكر اسم القائل، وإن كان يذكر بعضهم أحيانًا، وهو يتابع الزَّمخشرى فى الاستشهاد ببعض شعر المحدثين؛ وهو أبو تمام، وإن شفع له أنه استشهد بشعره فى غير النحو، وهو مُقِلّ فى شواهده النثرية الأخرى، فقد اقتصر على مثلين من أمثال العرب، وقولين من أقوالهم المشهورة، مع نسبة ما اشتهرت نسبته منها إلى قائله، وهو فى جميع شواهده لا يعيّن موضع الشاهد ولا يذكر وجه الاستشهاد به، وهو فى أمثلته التوضيحية يمثل بما شاع فى كتب عامة النّحاة من الأمثلة، ولكنه قد يذكر بعض الأمثلة المتطورة بما يتوافق مع القيم والمظاهر الاجتماعية السائدة فى عصره، وهو أمر يُحسَب له.

9 – برغم ما تزخر به عبارات تفسير البيضاوى من القضايا العقدية، والأحكام الشرعية، والمسائل النحوية، والإشارات البلاغية، والحقائق العلمية المتعددة الاتجاهات، فإن القارئ له لا يكاد يشعر بثِقَل العبارات أو جفافها أو غموضها وتعقيدها؛ فأسلوب التعبير عند البيضاوى يميل إلى السهولة والبساطة والوضوح، وألفاظه لا تحوج قارئه إلى الاستعانة بمعاجم اللغة ليفهمها، مع بروز بعض الخصائص اللفظية المميزة لأسلوبه؛ كاستعمال المصدر الصناعى، وبعض الألفاظ المستحدثة، مع الإكثار من استخدام ألفاظ معينة؛ كلفظة (فذلكة)، و(سيما)، و(النظم) وغيرها.. وتراكيب البيضاوى محكمة النسج شديدة التماسك، خالية من الغموض، أو الاستطراد أو الإطناب أو الإكثار من استعمال المصطلحات العلمية المختلفة، وإن وقع فى بعض الهنات التعبيرية – التى أشرنا إليها فى موضعها –، وهو يستعمل

المصطلحات النحوية الشائعة فى كتب عامة النّحاة، وإن خالف معاصريه فى استعمال بعض المصطلحات النحوية القديمة أحيانًا؛ كاستعماله لفظة (الجحد) فى مقابل (النفى)، و(المنصوب على الشتم) بدلاً من (المنصوب على الذم)، و(الكناية) بدلاً من (الضمير)، و(نون الدعامة) بدلاً من (نون الوقاية) وغيرها.

10 – يتميز البحث النحوى فى تفسير البيضاوى بسمات عامة أبرزها :

أ) وضعه النحو فى خدمة التفسير؛ وتوظيفه القواعد النحوية للكشف عن خفى المعانى ولطيفها والإبانة عن دقائقها، بما يُعين على إيضاح ما تضمنته آيات الكتاب الكريم من الحقائق الدينية والدنيوية، وبيان عظيم قيمتها وأهمية العمل بمقتضاها... مع الحرص على إبراز مواطن الإعجاز القرآنى؛ وهى وظيفة قلَّ أن يستطيع علم آخر تأديتها سوى علم النحو.

ب) حرصه على البحث فى وجوه نحوية ومعنوية دقيقة؛ وهو ما لا يتأتى إلَّا بإمعان النظر، ودقة التأمل، وعمق التبصُّر فى الآيات القرآنية وما تحتمله من الوجوه الإعرابية الدقيقة التى تكشف بدورها عن أبعاد جديدة من المعانى.. وهو ما يُنبئ عن مقدرة البيضاوى على المزاوجة بين الفكرة النحوية والمعنى السياقى للآيات الكريمة التى يفسِّرها.

جـ) تمسكه بتعليل ما يذكره من الأحكام النحوية؛ وهى سمة غالبة فى منهج البحث النحوى عند البيضاوى، وهو قد يعلِّل بعلة نحوية حينًا، أو بعلة معنوية حينًا آخر، وقد يمزج بينهما فى بعض الأحيان.

د) ميله إلى الإحاطة والاستقصاء؛ وهى ظاهرة تغلب عليه فى بحثه النحوى، وهو إمَّا أن يسعى إلى استقصاء المصطلحات أو الأدوات النحوية التى تعرض له فى تفسيره، وإمَّا أن يعمل على استقصاء الأوجه الإعرابية الجائزة فى المفردات أو التراكيب النحوية، فيكاد لا يترك فيهما مجالاً لمستزيد.

هـ) وهو فى ترجيحه لِمَا يورده من الآراء النحوية والأوجه الإعرابية يجعل معياره: إمَّا الموافقة للقواعد والأصول النحوية بعامة، وإمَّا لموافقتها للمعنى الذى يفرضه السياق العام

للآيات.. وهو يجعل المعنى دائمًا موضع اهتمامه الأكبر بوصفه الهدف الأصيل من علم التفسير، وقد يستبعد رأيًا نحويًّا أو وجهًا إعرابيًّا لِمَا فيه من التكلف، أو لضعف فصاحته، وقد يعرض كافة الأقوال النحوية أو الأوجه الإعرابية الجائزة دون أن يتدخل فيها بترجيحٍ أو إضعاف.

و) وهو يحرص أحيانًا على حشد كثير من الأدلة على ما يذكره من الأحكام النحوية أو الأوجه الإعرابية؛ تأكيدًا لِمَا اختاره منها، وحرصًا على تثبيت ما ينبنى عليها من المعانى التى هى شغله الشاغل فى تفسيره، وهو فى استدلالاته – كشأنه فى تعليلاته – قد يعتمد على القواعد النحوية أو على الأدلة المعنوية المنبثقة من السياق العام للآيات الكريمة. وإن كانت هذه الظاهرة غير غالبة عنده فهى تظهر أحيانًا وتختفى فى أكثر الأحيان، وقد يشفع له فى عدم الالتزام بها حرصه على أن يأتى تفسيره موجزًا غير مطوَّل.

ز – للبيضاوى آراؤه النحوية التى ينفرد بها؛ ويقتضينا الحق أن نقول بأن هذه الآراء فى مجملها ضعيفة، وإن وجدت من يتبناها من بعده ويدافع عنها، فهو يقول بجواز حذف المضاف دون أن يتقدمه مضاف آخر مثله مذكور فى الكلام ليكون قرينة على المحذوف، وهو يخلط بين لام جواب القسم ولام الابتداء الداخلة على خبر (إن)، ويجيز مجيء كل منهما فى موضع الأخرى.. وكلاهما غير جائز عند عامة النّحاة، وهو يجعل الظرف نوعين (ظرف مجرد) دال على وقوع الحدث فيه على وجه الحقيقة، و(ظرف سببيى) ينسب إليه الحدث على وجه التسبُّب لوقوعه فيه؛ وهو قول لا بأس به، وإن كان قد سبقه بعض النحاة إلى الإشارة إلى ذلك، ولكنها إشارات لا تكاد تبين، ويبقى البيضاوى صاحب مصطلح (الظرف السببيى) بغير منازع.

11 – تأثر البيضاوى نحويًّا بكثير من سابقيه، ولكن تأثره الذى يتضح بجلاء، كان باثنين من كبار العلماء السابقين عليه؛ وهما: جار الله الزَّمخشرى، وأبو البقاء العكبرى.

أ) أمَّا الزَّمخشرى؛ فقد تأثر به البيضاوى فى أكثر ما أورده من النحو فى تفسيره، فقد أخذ عنه نهجه فى البحث النحوى، كتوظيفه النحو فى خدمة تفسير المعنى وتعليله للأحكام النحوية، وفى ظاهرة الإحاطة والاستقصاء، وفى معايير الاختيار والترجيح، وفى حشد الأدلة على الحكم النحوى.. وإن زاد عليه الزَّمخشرى بميله إلى النزعة التعليمية، وفى الإكثار من التعرض للمسائل النحوية، وفى التوسع فى القراءات، وفى شدة تهجمه على القُرَّاء وقسوته عليهم. والبيضاوى كثير الأخذ من الزَّمخشرى فى الآراء النحوية والأوجه الإعرابية الواردة فى (الكشاف)، ولكن تبعيته للزَّمخشرى ليست على إطلاقها؛ فقد يزيد البيضاوى على ما ذكره الزَّمخشرى زيادات تكثر أو تقل، وقد يخالف الزَّمخشرى ويختار غير قوله، وهو يُتابعه فى الاستشهاد بشعر أبى تمام، والغريب أن البيضاوى بعد كل ما أخذه عن الزَّمخشرى لم يشر إلى أخذه منه مرة واحدة، بل هو لم يصرِّح باسمه فى تفسيره على الإطلاق.

ب) وأمَّا أبو البقاء العكبرى؛ فقد أخذ عنه البيضاوى بعض الأقوال النحوية والأوجه الإعرابية فى خمسة مواضع من تفسيره، وبرغم التشابه الذى يصل أحيانًا إلى حدِّ التطابق بين عبارة البيضاوى وعبارة أبى البقاء فى كتابه «التبيان فى إعراب القرآن»؛ فإن البيضاوى قد أغفل ذكر اسم أبى البقاء العكبرى مطلقًا فى تفسيره فضلاً عن أن يُشير إلى ما نقله منه.

12 – أنشأ اللاحقون للبيضاوى أكثر من خمسين مصنفًا تقوم على تفسيره، ولكن تأثير البيضاوى من الناحية النحوية قد ظهر بوضوح عند واحد من أشهر هؤلاء اللاحقين؛ وهو (أبو السعود العمادى) فى تفسيره «إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم»، فقد أخذ عن البيضاوى كثيرًا مما أورده من المسائل النحوية مع تطابق عبارته أو تقاربها مع عبارة البيضاوى، وإن كان قد زاد على البيضاوى أحيانًا، أو خالفه فى بعض الأحيان، مع متابعته البيضاوى فى منهجه فى القراءات والنحو، إلى حدِّ متابعته له فى آرائه النحوية الضعيفة.

13 – على الرغم مما قدَّمه البيضاوى فى تفسيره من جهد نحوى مشكور، إلَّا أننا نجد عليه بعض المآخذ النحوية فى تفسيره، منها: قبوله ببعض الآراء النحوية الضعيفة، يستوى فى

ذلك ما انفرد به منها، أو ما اختاره منها من أقوال غيره، ومنها: نقله الخاطئ لبعض النصوص النحوية الذى يؤدى إلى غير المعنى المراد منها عند أصحابها، ومنها: إغفاله ذكر من نقل عنهم غالبًا؛ كالزَّمخشرى أو العكبرى أو غيرهما، وعدم إشارته إلى الكتب أو المراجع التى نقل عنها، أو ذكر بدايات نقوله أو نهايتها بما يؤدى إلى الخلط على القارئ بين كلام البيضاوى وكلام غيره.

وهذه الهنَّات لا تحطّ من شأن هذا التفسير القيِّم، ولا تقلل من تقديرنا لِمَا بذله فيه الإمام البيضاوى من جهدٍ نحوى مشكور؛ فالكمال لله، وجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء.